نبذة عن مدينة صفرو

تقع مدينة صفرو في سفح جبال الأطلس المتوسط، فتجمع بين الطبيعة الجبلية والطبيعة السهلية، وبذلك تلتقي فيها مواصفات ما يسمى بالدير، إلى جانب ذلك فقد كانت الغابات تحيط بها، هذا دون أن نغفل أهمية المدينة بالقياس إلى مراكز التجمعات السكنية الأخرى بالمنطقة ،بحيث توجد على ارتفاع 850 متر عن سطح البحر، ويحدها شمالا جبال الريف، وجنوبا جبال الأطلس، وشرقا مضيق تازة، وغربا هضبة سايس، إلا أنّها مميّزة جداً بتاريخها المجيد؛ اذْ تعاقب عليها المسلمون واليهود والأمازيغ، كما تتميّر بأشجارها الوافرة وشلالها الغزير المنهمر ومغرها التي حفّزت بشكل أو بآخر السياحة الجبلية ما أنعش اقتصاد المدينة من جهة، وشهرتها من جهة أخرى، والبنيان العمراني من جهة ثالثة.

وفي نفس السياق لابد من الإشارة إلى أن مدينة صفرو كانت تسمى أورشليم اليهود و حديقة الفرنسيين و حبة الكرز التي يعشقها المغاربة بحيث أن هذه المدينة لا تُعرَف فقط بمسابقتها السنوية الشهيرة لملكة جمال فاكهة الكرز (حب الملوك)، و لكن أيضاً باحتوايها عبر سنوات و عقود خلت للطايفة اليهودية، التي استوطنت بأحياء المدينة، أول ما ستلحظ وأنت تزور صفرو للوهلة الأولى أنها مدينة قديمة، أسوارها وأزقتها تشهد على عراقتها وأصالتها، وتراثها التاريخي والعمراني والثقافي الإسلامي و اليهودي ، لتكتشف أنها ليست مجرد مدينة بل هي روضة من رياض المغرب الجميلة، و حوض من أحواض الفاتنة الخلابة، وواحة من الأمان للباحث عن مكان للراحة والاستجمام بعيدًا عن ضوضاء المدن الكبيرة، وقد أرّخ لأول استيطان بشري في صفرو في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي، وذلك في مكان مرتفع عرف فيما بعد باسم القلعة، وعلى الرغم من قسوة الحياة فيها بسبب مُغْرِها الغامضة، وغاباتها الموحشة؛ إلا أنّ وفرة مياهها حيث يوجد وادي أكاي الذي يقسم المدينة إلى نصفين، وخصوبة تربتها وروضها الغناء دفعت الإنسان إلى الاستقرار فيها، هذا بالإضافة إلى أنّ البدو الرحل من الأمازيع اتخذوا كهوفها موطناً لهم، من جهة أخرى تعتبر صفرو مدينة تجارية منذ القدم، فكانت محطّة للقوافل التجارية القادمة من الشمال نحو تافيلالت وسجلماسة، كما أنّ التجار اليهود قد استقرّوا فيها وأقاموا مرافق تجاريّة لهم؛ ما أدّى إلى ازدهارها ونشاطها تجارياً وعمرانياً عبر العصور.

ومن بين المميزات الخاصة للمدينة نجد هناك مهرجان حبّ الملوك أو كما يلقبونه بشيخ المهرجانات الذي يقام سنويا بالمدينة والذي يعتبر مهرجاناً ثقافياً شعبياً سياحياً هو الأشهر من نوعه تحت اسم مهرجان حبّ الملوك، وعلى الرغم من تكلفته المادية المرتفعة إلا أنّه طقس تقليدي جرى الاحتفال به أوّل مرة في يونيو عام 1920م، ويتم الإحتفال به في النصف الثاني من شهريونيو من كل سنة، و"حب الملوك" قد لا يدل على اسمه في الحقيقة

وربما لا يتوقع الكثيرون أنه مجرد اسم لنوع من أنواع الفاكهة! فهذا المهرجان تعدى صيته المدن المجاورة ليصل إلى العالمية، يأتي إليه المغاربة والأجانب من كل حدب وصوب ليستمتعوا به وذلك تزامناً مع انتهاء موسم جني الكرز وهي الفاكهة الأكثر شهرة على الإطلاق في المدينة، وأمّا بالنسبة لطبيعة الاحتفال الذي يحضره السكان المحليّون والسيّاح الأجانب ويستمر ثلاثة أيام فيشمل ما يلي: أهازيج عربية وأمازيغية. استعراض شعبي يطوف شوارع المدينة بالمشاعل ومصحوبا بنغمات فرق موسيقيّة شعبيّة وكشفية إيذانا بإعلان افتتاح هذه التظاهرة التي تستهدف للاحتفاء بفاكهة "حب الملوك" الباذخة، وتتخلل المهرجان فقرات عدة من مسابقات رياضية وفنية وعروض مسرحية فضلاً عن السهرة العمومية الكبرى في ساحة باب المقام، وتجري الإحتفالات الكرنفالية الختامية من خلال موكب الملكة، المؤثث بعدد من العربات عبارة عن لوحات ذات أبعاد وطنية و قومية و اقتصادية و تربوية تترجم عمق التراث الثقافي والإنساني المتعدد، ويمضي الاستعراض الرسمي للموكب على طول المسافة لشارع محمد الخامس ليرسو في الساحة الكبرى لباب المقام مع مساهمة الجوقة النحاسية و فرق فلكلورية ذات طابع أمازيغي، لإضفاء قيمة جمالية لهذه التظاهرة الاحتفالية.

أما فيما يخص المؤهلات التراثية والعمرانية للمدينة فهي ضاربة في القدم بحيث تتوفر هذه الأخيرة على مجموعة من الأسوار والأبواب كلها تشهد على الموقع الاستراتيجي للمدينة في تأمين و حماية الطرق التجارية بين فاس وتافيلالت من جهة، ومن جهة أخرى تشهد على الحضارات التي مرت عبر هذه المدينة، بجنانها وأشجارها الوارفة الكثيرة و المتنوعة من شجر الأرز و شجر الزيتون، و غاباتها الموحشة، و مغاراتها المأهولة، و عيونها المتدفقة، و شلالها المنهمر و واديها الجارف و مهرجانها العريق.

بحيث أن أول ما تستقبلك به صفرو هو سور "باب المقام" الشامخ و الشاهد على تاريخ المدينة الصامد ضد الغارات، مع حدايق غنّاء مميزة و مختلفة عن أي حدايق في أي مكان، فالحديقة المتمركزة وسط المدينة و القريبة من "باب المقام" حلزونية الشكل، فيها مقهى مميز يُشرف على حوض سباحة أنيق، مع جسر صغير يمر من تحته وادي نهر "أغاي"، المشهور بشلاله المنهمر، و الذي يقسم المدينة إلى جزأين متماثلين تقريبا، تصلهما جسور كثيرة تشبه جسور نهر "تايمز" في مدينة الضباب، وجداول المياه تمر وسط الأحياء السكنية باردة و منعشة و نقية ثم هناك أيضا باب المضيق: ويعرف الآن بباب ستي مسعودة باب درب عمر: باب بني مدرك: يوجد بداخله سيدي مشهور ولالا بنت أحمد. أما بخارجه فأهم ما يوجد به ضريح سيدي بومدين. هذا إلى جانب أبواب أخرى مثل:،باب المربع ،باب المجلس ، باب غديوة، باب القلعة الأمامي، باب القلعة الخلفي هذه المعالم تخلق شوقا كبيرا لدى الزاير في اكتشافها والاطلاع عليها.

فبالإضافة إلى الأسوار والأبواب نجد المنازل القديمة التي تحمل المظاهر الريفية بالمدينة و هي تعتبرأحد مواضيع البحث الأركيولوجي بالنظر لإرثها التاريخي مثال: دار القايد عمر دار البطحة دار العموري، ودار حماموش... إلخ والتي تتميز بالفن المعماري المستنبط من الجنوب المغربي، والمشتق من المنازل التقليدية لمدينة فاس، وهو نوع يجمع بين فنون متعددة منها ما هو مغربي و ما هو أندلسي. ويرجع تاريخ هذه المنازل و الموجودة حتى الآن إلى القرن 18 و19، ونجدها خصوصا في عرصة الدار و في حي تاقصبت بالمدينة والتي كانت تسكن بها أمازيغ آيت يوسي و عموما فإن هذه المنازل كانت تبنى بالآجور الفيض و الملاط الرملي أوالجيري، و يعتبر كل منزل من هذه المنازل غني بالأسقفة الفاخرة ذات الأشكال المتنوعة: قبات و أسقفة من الخشب الدقيق، بالإضافة إلى المنازل الريفية كانت و لا تزال تتواجد بالمدينة المنازل اليهودية و الخاصية المميزة لهذه

المنازل هي كونها صغيرة الحجم و هذا راجع إلى كثرة السكان القاطنين بالحي، كما أنها لا تستمد ما يكفيها من الهواء وأشعة الشمس و عرضها يظل نحو الخارج بواسطة شرفات عالية مزينة بشبابيك من الحديد، هذه الشرفات المنتشرة بشكل عمودي تعطي موقعا رائعا بالنسبة للغرف أو "المصريات" و تشتمل أحيانا طوابق، وكل منزل يأخذ شكل جميل.

وما يميز هذه المدينة عن غيرها كذلك هو التاريخ المتعدد الذي صنعه تعايش الديانات الإسلامية والمسيحية واليهودية بها ، وعلى الرغم من أن هذه الخصوصيات أصبحت ذكريات من الماضي ،فإن أطلالها ما تزال حاضرة في أحيائها العتيقة، إلى جانب مقابر اليهود و المسيحيين و معابدهم و كنائسهم، فإن المدينة تشهد حضورًا كبيرًا وملفتا للزوايا التي توجد مقارها وسط المدينة العتيقة كزاوية مولاي علي الشريف " وزاوية "سيدي محمد بنعيسى" وزاوية "القناسة" التي أسست في عام 1780 من قبل سيدي محمد بن بوزيان القنوني وزاوية "سيدي الحسن بن أحمد"، التي تعد من أهم الزوايا في المدينة، ويحج إليها أتباع الزاوية الدرقاوية للتبرك بضريح هذا الولي الذي شيد في القرن 18م، وزاوية "سيدي الخضير"، التي أنشئت سنة 1830 من قبل الحبيب زرو، وكان من أتباع الزاوية الدرقاوية، وزاوية "سيدي الغازي"، وتأسست بدورها سنة 1831 من قبل أحد المنحدرين من عائلة هذا الولي كما تضم صفرو زوايا أخرى منها زاوية سيدي عبد القادر الجيلالي وزاوية سيدي محمد بن العربي و الزاوية "التيجانية" والزاوية "الكتانية" والزاوية "الصادقية"، ولكن أغلب هذه الزوايا لم يعد لها حضور في الساحة، إضافة إلى الزوايا فإن المدينة معروفة بأضرحتها، ومن أشهرها سيدي بومدان وسيدي أحمد التادلي، وضريح سيدي علي بو سرغين...

ولعل أهم الخصائص المميزة لهذه المدينة أيضا هو قطاع الصناعة التقليدية الذي كانت تشتهر به أحياء الملاح بالمدينة من خلال تواجد اليهود الذين كان أغلبهم يحترف بعض المهن سواء بيع الملابس والزرابي في "السويقة" للمدينة العتيقة، الشيء الذي أرسى وفق المطلعين على تاريخ المدينة جسورا من التعايش بين المغاربة واليهود داخل صفرو بحيث تصنف الصناعة التقليدية من أهم الأنشطة المتواجدة، بها و تتمركز جل هذه الأنشطة بالمدينة العتيقة و ترتبط بالخصوص بتلبية حاجيات السكان الأولية كالنجارة و الخياطة و الزرابي و الطرازة و الدرازة و الحدادة و صناعة الزليج و الأواني الطينية و النقش على الخشب و الجبص والأزرار الحريرية .

ويرجع سبب أهمية الصناعة الحرفية في التشغيل إلى التطور الملحوظ في صناعة الأزرار الحريرية، التي تعتبر نشاطا منزليا معاشيا، غيور اجتماعي مهم جدا على مستوى توزيع الدخل، لكن قيمتة المتواضعة في غياب مبادرات لتثمين هذه الحرفة القديمة التي يرجع ظهورها بالمدينة إلى الحرفيين اليهود الذين استوطنوا بالمدينة، و الملاحظ أن نشاط الصناعة التقليدية قد عرف على غرار

باقي المدن المغربية تراجعا ملحوظا أمام غزو المواد المصنعة و تطور أنماط الاستهلاك بالمدن والبوادي على السواء، هذاالتراجع ظهرعلى مستويين: المستوى العددي والمستوى المجالي: فالأول: تجلى في اختفاء الكثير من الحرف أما الثاني فقد تمظهرفي تراجع ممارسة الحرف بحي الحدادين بالمدينة القديمة، ومع ذلك فإن القطاع الحرفي لازال يشكل ظاهرة ملفتة بصفرو لكونه يشغل نسبة مهمة من اليد العاملة النشيطة.